الخلفاء ومجالس الأدب

بقلم: د. يحيى الجبوري
العراق

كان للخلفاء مجالس غير مجالس الحكم التي تعقد في النهار، فكانوا إذا قضوا أمور الحكم وقضايا الناس يروحون عن أنفسهم بالأحاديث وسماع الشعر وتعرف أخبار الماضين، فيدعون الأدباء والرواة وأهل الأخبار يحضرون مجلس الخليفة، فيسأل الخليفة عما يروقه من الشعر وأحوال الناس وصفات الملوك السابقين، يلتمسون في ذلك الخبرة في أصول الحكم ومهام الملك واتخاذ العبر من أحوال السابقين، بالإضافة إلى الترفيه عن أنفسهم بسماع طرائف الأشعار والأخبار، وكان معاوية أول من اهتم بهذه المجالس، وسار على نهجه هشام بن عبدالملك وابن هبيرة والمنصور [1]، فكانوا يقيمون أناسا يقصون عليهم أخبار الملوك والقواد من الروم والفرس، وأخبار الدول وكيف كانوا يسوسون ويحكمون، يلتمسون بذلك التوسع بأسباب الدهاء وأفانين السياسة.

وقد تكون هذه المجالس واسعة يحضرها عدد كبير من الشعراء والأدباء وأصحاب الأخبار، وقد تكون خاصة إذ يستدعي الخليفة راوية أو إخباريا ممن يرتاح لسماع أخباره وأحاديثه في ساعة قلقه أو أرقه من الليل أو النهار، وكثيرا ما تكون هذه المجالس الفردية في أواسط الليل والناس نيام، فيحدثه جليسه بما يود سماعه فيتنقل المحدث من رواية خبر إلى رواية شعر إلى رواية حكمة أو طرفة فتنشرح نفس الخليفة وترتاح نفسه بما تزود من علم وأفاد خبرة وزاد دهاء وسرى عن نفسه الهموم والأرق [٢].

وهؤلاء الخلفاء عرب نشؤوا على حب الشعر وحفظه والتمثل به، فكانوا لذلك يجلبون أهل الأدب والعلم ويقربونهم ويبذلون لهم الأموال ولا سيما هارون الرشيد والمأمون، ومما يروى عن الرشيد وحسن معاملته للعلماء أنه كان يلاطف الأصمعي ويجله ويجزل له الهبات السنية، ومن تكريمه للعلماء أنه أكل أبو معاوية الضرير مع الرشيد طعاما، فلما قام أبو معاوية ليغسل يديه، تناول الرشيد الإبريق وصب على يديه الماء وأبو معاوية لا يعلم، فقال له : أتدري من صب على يديك الماء ؟ قال : لا، قال : أنا، قال : أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم، إجلالا للعلم [٣]. وكذلك كان الخلفاء يقفون مع العلماء في الانتصار لرأيهم، من ذلك ما جرى بين سيبويه والكسائي فيما يعرف بالمسألة الزنبورية حيث انتصر الأمين للكسائي، وانتصر المأمون لسيبويه، وقد جرى جدال طويل بحضرة الرشيد الذي أيد الكسائي [٤].

وقد حرص الخلفاء على تعليم أبنائهم وتحفيظهم الأشعار التي تهذب نفوسهم وعقولهم فأوكلوا لهم نخبة من العلماء والأدباء يعلمونهم ويؤدبونهم، فقد أوكل المنصور ابنه إلى الشرقي بن القطامي، وأوصاه أن يعلمه أخبار العرب ومكارم الأخلاق وقراءة الأشعار[٥]، وكذلك المفضل الضبي ليعلمه العربية والأخبار والأشعار، وعهد الرشيد بتعليم ابنه الأمين إلى علي ابن الحسن المبارك المعروف بالأحمر النحوي، ثم إلى الكسائي، وعهد بتأديب المأمون إلى اليزيدي وسيبويه وغيرهما، وقد أوصى الرشيد الأحمر النحوي الذي أوكل إليه تأديب الأمين بقوله:«ياأحمر،إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار،وعلمه السنن،وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ماستطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة»[٦].

وعهد المأمون إلى الفراء بتعليم ولديه النحو، واتفق أن الفراء أراد أن ينهض ذات يوم إلى حوائجه، فابتدر إلى نعله ليقدمها له، فتنازعا أيهما يقدمها، ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما واحدة، وبلغ ذلك المأمون، فاستدعاه، فلما دخل عليه قال المأمون : « من أعز الناس؟» قال:« لا أعرف أحدا أعز من أمير المؤمنين»، فقال:« بل من إذا نهض تقاتل على تقديم نعله

وليا عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فردة»، فقال:« ياأمير المؤمنين، لقد أردت منعهما عن ذلك ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها، أوكسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها»(٧). وعهد المتوكل بتعليم أبنائه إلى ابن السكيت(٨)، أما عبد الله بن المعتز فقد تعلم الأدب والعربية على المبرد وثعلب وأحمد بن سعيد الدمشقي (٩).

وكان للخلفاء عناية فائقة بالشعراء وتقديمهم، فهم اللسان الناطق بمآثرهم والمشيد بمفاخرهم، وكانوا يأنسون ويبتهجون بمساع الشعر ويهتزون له فيجزلون العطاء للمنشدين، ولذلك فقد عين الخلفاء أوقاتا للشعراء يدخلون فيها عليهم، وكانوا يفرضون لهم مالا يدفعونه إليهم كل سنة على الوفدة أو القصيدة، أو يعطونهم على البيت من الشعر مبلغا معينا، وكان مقامهم يعلو ويهبط تبعا لأمزجة الخلفاء وأغراضهم وأحوالهم السياسية، ولم يكن كل الخلفاء يغدقون الأموال، بل كان من هم البخيل الدوانيقي الشحيح مثل المنصور وبسبب من بخله كان الشعراء في عهده يخرجون من بغداد ويجتمعون يتذاكرون أيامهم في الشام على عهد بني أمية(١٠).

وكان بعض الخلفاء يمنعون الشعراء زهدا وتحرجا أن يجيزوهم من بيت المال مثل عمر بن عبد العزيز وعبد الله بن الزبير.

وكان أكثر الخلفاء يحبون الشعر ويجزلون عليه العطاء، وكان بعضهم شاعرا مثل يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد بن عبد الملك، وعبد الله بن المعتز، وقد رويت لكثير من الخلفاء أبيات وقطع معدودة، فهناك أشعار حفظتها كتب الأخبار والأدب للخلفاء الراشدين، ولمعاوية بن أبي سفيان، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، ويزيد بن الوليد، ومروان ابن محمد،وغيرهم(١١)، وكذلك يقال في الخلفاء العباسيين.

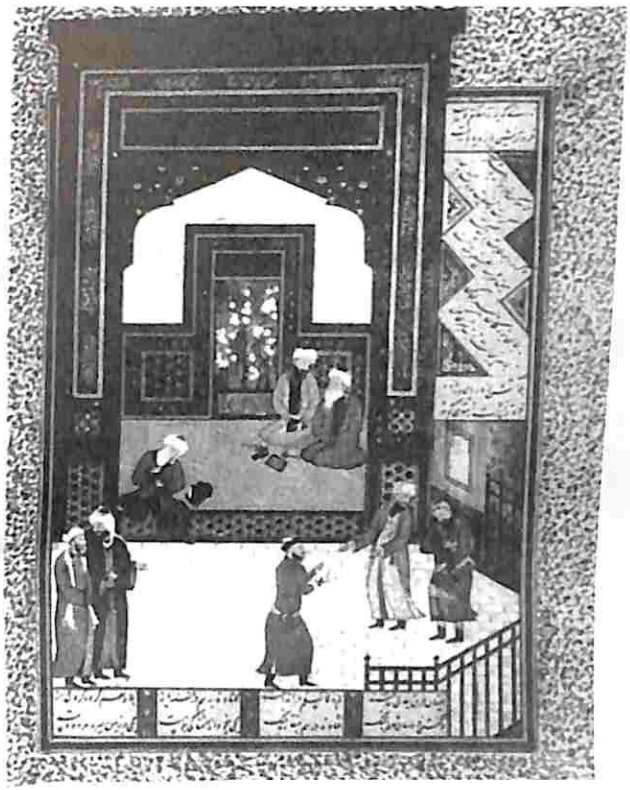

وكان الشعراء يتقربون إلى الخلفاء والأمراء بالشعر، وكان أكثرهم يبالغون في إضفاء صفات القوة والمهابة والعدل والكرم ويجاوزون حد الاعتدال فيرتكبون أقبح الأكاذيب، ولذلك كانت لهؤلاء الشعراء منزلة رفيعة عند الخلفاء.أما الذين كانوا يلتزمون القصد والاعتدال فما كان لهم نصيب من الحظوة والمكانة، ولذلك شاع في العصرين الأموي والعباسي شعر المديح الكاذب والتكسب بالشعر وإراقة ماء الوجه. وكان لدخول الشعراء على الخلفاء وإنشادهم الشعر أصول ومراسيم، منها أن ينشد الشاعر قصيدته بصوت عال وهو قائم، وإذا تعدد المنشدون قدموهم حسب أسنانهم، وكان الخلفاء يتفهمون الشعر وقد يباحثون الشاعر في معنى البيت أو الكلمة، وإذا أرادوا سماع قصيدة لم يعرفها الحاضرون أو فهم بيت أو أبيات أرسلوا إلى العراق أو الحجاز لاستقدام شاعر أو راوية فينشدهم ويعرفهم ما طلبوا، وقد لا يكون الغرض من ذلك إلا سماع بيت أو قصيدة، كما فعل الوليد بن يزيد حين استقدم حمادا الراوية من العراق لينشده قصيدة

تغنيها مغنيته [١٢]، أو لينظم له شعرا في حادثة جرت معه، كما فعل الواثق لما غضبت عليه حظيته، فاستقدم ابن الضحاك ليقول في ذلك شعرا[١٣]، وقد يجيزون من يأتيهم بشاعر أو مغن يعجبهم كما أجاز المهدي الفضل بن الربيع بعشرة آلاف دينار، وولاه حجابته لأنه أتاه بابن جامع المغني[١٤].

وكانوا لايكتفون بمن يفد عليهم من الشعراء لإنشاد الشعر وطلب الهبات والعطايا بل كانوا يرسلون على بعض الشعراء الذين يأنسون بشعرهم، وكان الرشيد أكثر الخلفاء طلبا للشعراء [١٥] فتكاثر الشعراء ببابه حتى ضاقت بهم بغداد، واضطروا إلى امتحانهم وتربيتهم في الجوائز،فعهد يحيى بن خالد البرمكي بذلك إلى شاعره أبان اللاحقي[١٦]، وأصبح الخليفة إذا أحب مجالسة الشعراء بعث رجلا يثق به ليختار له أحسنهم[١٧]، أو إذا عنّ له بيت أو قصيدة، خرج وصيف أو حاجب أو نحوهما فيقول للشعراء : «من منكم يقدر يقول قول فلان أو يحفظ القصيدة الفلانية فليدخل وله كذا وكذا»[١٨]، وكان الخلفاء يهتمون بحفظ الأشعار وروايتها ويتمثلون بالأشعار في مناسبتها،ومما يروى عن المنصور[١٩]أنه (لما توفي ابنه جعفر بن المنصور الأكبر، مشى المنصور في جنازته من مدينة بغداد إلى مقابر قريش، ومشى الناس أجمعون معه حتى دفنه، ثم انصرف إلى قصره، ثم أقبل على مولاه الربيع بن يونس، فقال: ياربيع انظر من في أهلي ينشدني :

أمن المنون وريبها تتوجع[٢٠]

حتى أتسلى بها عن مصيبتي، قال الربيع : فخرجت إلى بني هاشم وهم بأجمعهم حضور، فسألتهم عنها، فلم يكن فيها من يحفظها، فرجعت فأخبرته، فقال: والله لمصيبتي بأهل بيتي ألا يكون فيهم أحد يحفظ هذا لقلة رغبتهم في الأدب، أعظم وأشد عليّ من مصيبتي بابني، ثم قال : انظر هل في القواد والعوام من الجند من يعرفها، فإني أحب أن أسمعها من إنسان ينشدها، فخرجت فاستعرضت الناس فلم أجد أحدا ينشدها، إلا شيخا كبيرا مؤدبا قد انصرف من موضع تأديبه، فسألته : هل تحفظ شيئا من الشعر ؟ فقال : نعم، شعرأبي ذؤيب، فقلت : أنشدني، فابتدأ هذه القصيدة العينية، فقلت له : أنت بغيتي، ثم أوصلته إلى المنصور فاستنشده إياها، فلما قال :

والدهر ليس بمعتب من يجزع

قال : صدق والله، فأنشدني هذا البيت مائة مرة ليتردد هذا المصراع عليّ، فأنشده، ثم أمر الشيخ بالانصراف وأتبعه بمائة درهم [٢١].

وكان أكثر الخلفاء يطربون للشعر ويستلذونه، وربما تزاحفوا عن مجالسهم إعجابا وطربا [٢٢]. وكان لكل خليفة صفات خاصة في مجلسه تتضح في محاوراتهم مع الشعراء وامتحانهم ومساءلتهم. ■

الهوامش:

(١) ابن الأثير ٦/١١.
(٢) مروج الذهب، المسعودي، ٢/١٦٣.
(٣) سير الملوك، ص٧٩.
(٤) طبقات النحويين، ص١٣٨، تاريخ التمدن الإسلامي، ٣/٧٩.
(٥) مروج الذهب، ٢/١٨٠. طبقات الأدباء، ص٤٢.
(٦) ابن خلدون، ١/٤٧٥.
(٧) طبقات الأدباء للأنباري، ١٣٠، ابن خلكان، ٢/٢٢٨.
(٨) طبقات الأدباء، ص٢٣٨.
(٩) فوات الوفيات، ص١/٢٤١.
(١٠) الأغاني، ١٢/٩١، ١٠٢.
(١١) راجع في شعرهم : شعر الخلفاء في العصرين الراشدي والأموي لنبال الخماش، د. ط، ١٩٨٤.
(١٢) الأغاني، ٢/٦٥.
(١٣) الأغاني، ٦/١٧٨.
(١٤) الأغاني ٦/٧٣، وانظر تاريخ التمدن الإسلامي، ٥/١٤١.
(١٥) الأغاني، ١٧/٧٤.
(١٦) الأغاني، ٢٠/٧٣.
(١٧) الأغاني، ٢/١٢.
(١٨) الأغاني ١١/١٣٥، ١٧/١٤١.
(١٩) الأغاني، ٦/٢٨٧، ط بيروت.
(٢٠) الشعر لأبي ذويب الهذلي من قصيدة في المفضليات، ٤٢١ - ٤٢٩، يرثي بها أبناءه الخمسة الذين ماتوا بالطاعون في عام واحد، وتمام البيت : والدهر ليس بمعتب من يجزع.
(٢١) الأغاني، السابق.
(٢٢) سير الملوك، ص٩٣.